الفصل الرابع عشر

مهمة سياسية

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر جلست السيدة املي دشتون في كرسيها الهزاز امام النار تنتظر قدوم البرنس سكولوف بقلق زائد وصبر ذاهب ولم تخلُ ظواهر وجهها من لوائح هذا الاهتمام. لان الحصول على عشرة آلاف جنيه لم يكن امراً سهلاً. على ان رجاء نيل هذا المبلغ اصبح الان اشدّ منهُ قبل الظهر لان سرعة جواب البرنس سكولوف وتلبيتهُ دعوتها بشرتاها بأن عندهُ شيئاً مهماً يروم انتدابها لهُ ويودُّ ان يفوض اليها امر قضائهِ. ولا يخفى ان مهمات هذا البرنس وان كانت محفوفة بالاخطار والعراقيل كان لمن يقضيها أجرة تملأ الجيوب وتسر القلوب

وما صارت الساعة الثالثة حتى سمعت قرعاً على باب دارها ثم عقبهُ دخول البرنس سكولوف فلم تنهض لاستقبالهِ بل اقتصرت على مد يدها اليهِ فانحنى لتقبيلها بمزيد الاحترام وافتتح الكلام

— كيف حال صديقتي الجميلة

— اني في قلق لا مزيد عليهِ واروم قضاء شيء — شيء مهمّ الى الغاية ولاجلهِ دعوتك الآن

— هكذا ظننت . فما هو المبلغ الذي تحتاجين اليهِ ؟

— عشرة آلاف جنيه

— عجباً ؟ أهذا كل مطلوبك ؟

— نعم في الوقت الحاضر فهل يمكنني الحصول على هذا المبلغ ؟

— هكذا ارجو . وهو متوقف عليك ؟

— مرادك ان عندك شيئاً تروم مني قضاءهُ وهذا المبلغ يكون اجرتي او جزاء سعيي فيهِ. ولكني اروم الحصول على المال يوم الاثنين

— ان فعلت ما اريد — ففي الساعة الاولى بعد نصف الليل آتي اليكِ واعطيكِ المطلوب اوراقاً مالية او ذهباً عيناً كما تريدين

— خلِ عنك المزاح يا سكولوف فليس لي عليهِ الآن طاقة . اني في اشد الاحتياج الى المبلغ المذكور

— لستُ مازحاً بل بجدّ الكلام . وقد بلغني ان اللورد ارلنفورد في حاجة الى عشرة الاف جنيه وبأمل انكِ تجدينها لهُ

— أجدها ؟ انها مبلغ فاحش

— نعم مبلغ فاحش — اعظم مبلغ دفعتهُ جزاء خدمة واحدة

— اظنك تروم مني قضاء شيء مستحيل

— ليس شيئاً مستحيلاً على سيدة جميلة حاذقة نظيركِ

فرفعت نظرها اليهِ وتفرست فيهِ مليًّا وهي تحدث نفسها وتعللها بادراك المنى وتسهل عليها العقبات التي توقعت عروضها في طريق العمل الذي عزمت على مباشرتهِ طمعًا في نيل الجائزة ثم سألت البرنس : — ماذا تروم مني ؟

فاجابها بكل رصانة : — أيتها السيدة . اني عالم يقينًا انهُ ليس من امرأة انكليزية تستطيع مجاراتكِ في السعي بحزم ودراية . وكثيرًا ما خدمتني في ما يسمى حوادث سياسية ولم استخدمك قط في مانطلق عليهِ اسم عواقيل سياسية . ما الان فني عزمي ان ادعوك الى مهمة أعلى شأنًا واجلّ اعتبارًا مما اقدمت عليهِ في الماضي

فسالتهُ مرتابة : — لماذا لاتدعو اليها الشيطانة الجميلة

— فقال لان البارونة التدورف الان في تركيا لاسباب صحية

— لا بأس . اطلعني على مرادك فسأُقدم على قضائهِ كيف كان

— لاريب عندي في انك تقدرين ان اردتِ . لكنهُ شيء اعظم من سرقة رسالة او سلب اتراز ؟ اعيربني سمعك ؟ فانتِ مدعوة هذا المساء لتناول الطعام عند اللورد ارلتفورد لوداع القائد اوبين غودارد وهو سيزايل لندن في قطار الليل المخصوص على طريق دوفر الى فينا ومن ثم الى الاستانة فينبغي ان لا يذهب

— ماذا ؟

— يجب ان يعاق عن السفر

— ومن ذا يعوقهُ ؟

— انتِ

— انا ؟

— نعم

— ايجدّ تطلب هذا ؟

— او بجدّ تطلبين مني عشرة آلاف جنيه ؟

— اتعرف اوبين غودارد ؟

— اسمع بهِ

— وكيف تتوقع عاقتهُ عن القيام بخدمتهِ ؟

— لو عرفت كيف يتمُّ ذلك لكفيت نفسي مؤونة دفع هذا المبلغ ؟

— اذًا الاولى بي ان أيأس من نيلهِ . فان ما ترومهُ مستحيل . وغير خافٍ عليك ان القائد المذكور سيكون مخفورًا بالحراس من حين خروجهِ من بيت ارلنفورد حتى دخولهِ القطار فكيف يمكن توقيفهُ

— لا يمكن ولا انا بطالب ذلك — بل أُريد عاقتهُ الى صباح الغد فقط . لانهُ يهمني تأخير رسائلهِ بضع ساعات . فلسنا في شيء من امر الحراس لان موضوعنا عدم انطلاقهِ في الوقت المعين ليس الاَّ

— اذًا ترومني منعهُ وحملهُ على البقاء في لندن ؟

— انتِ تعرفينهُ من يوم كنتِ في الهند اليس كذلك ؟

— بلى ولكن كان ذلك من عهد طويل . اما الان فليس لي عليهِ سلطة . فاجابها ناظرًا الى ساعتهِ : — ينبغي ان اذهب ومن الآن الى نصف الليل يتسنَّى لامرأة نظيركِ ان تقلب مملكة . فراجعي المسألة ورددِيها في ذهنكِ وقلبي نظركِ في جميع اطرافها . والساعة العاشرة اكون في بيت ارلنفورد والساعة الحادية عشرة تنصبين مكيدتكِ ايًّا كانت . وعند نصف الليل ينبغي ان يسير قطار البريد بلا رسول المملكة كما ارجو . والساعة الاولى بعد نصف الليل انتظركِ لكي ادفع المبلغ المطلوب . فالى اللقاء — عن قريب

وقبلما تمكنت من النطق بكلمة واحدة خرج البرنس ودوت بهِ مركبتهُ في الشارع فرجعت الى كرسيها واستلقت عليهِ بلا حراكٍ وعيناها شاخصتان في الحائط مقابلها

الفصل الخامس عشر

القائد اوبين غودارد

وفي الساعة الثامنة كانت السيدة دشتون في غرفة الاستقبال في بيت اللورد ارلنفورد مقابل النار فدعت اليها الخادم وسألتهُ : — اما انتهى امر العشاء بعد ؟

— كلاَّ يا سيدتي فقد تأخر هذا المساء

— عندما يأتي شقيقي كرتردعهُ يدخل الى هنا

— "طيب حاضر"

وبعد بضع دقائق جاء اخوها فسألتهُ بلهفةٍ : — لقد ابطأت كثيرًا حتى أشفقتُ انك تأخر الى ما بعد العشاء . فقل لي ما وراءك ؟ هل نجحت مساعيك ؟

— بكل اسفٍ اقول لكِ انهُ تعذر عليَّ الحصول على المطلوب

— فماذا تفعل ؟

— لا اعلم . لم يبقَ عليكِ سوى سكولوف فقد اجتمعت بهِ قبيل العصر ومن حديثهِ علمت انهُ يحتاج اليكِ في قضاء مهمة ذات شأن واظنكِ شاهدتهِ

— نعم شاهدتهُ

— هل يقدر ان يساعدنا

— نعم إن —

— هه ! إن ! إن ! يا للداهية . كأنهُ لا بدَّ من "إن" فبلا ريبٍ تقدرين على امتثال ارادتهِ ويجب ان تمتثلي . فماذ يريد ؟

— انَّ القائد اوبين غودارد يبرح لندن هذه الليلة الى فينا محبوبًا برسائل

— نعم وما ذا يهمنا سفرهُ ؟

— سكولوف يروم عاقتهُ عن السفر! هذه هي المهمة .

— لقد ازعجني امر هذا القائد

— اظنهُ محبًا قديمًا لالس ارلنفورد ولذلك يهمك امرهُ كثيرًا

حقًا ! ولماذا ؟

— لانك انضبتَ مطايا جهدك في استمالة السيدة ارلنفورد اليك فاخفق مسعاك ولم تفلح ولن تفلح . وقد مهدتَ لنفسك سبيل الدخول الى بيتها بان اقرضت زوجها مالاً كثيرًا وهوذا أنتَ الآن في بيتها فماذا انتفعتَ ؟

— ارى في كلامكِ شيئًا من الاستخفاف بي فلماذا ؟

لاني لا ارى منك نفعًا يعشي على ملاطفتك واحترامك

— يالها من حجة قاطعة ! ولكن الا توجبين — ؟

ثم دخل الخادم واعترض تتمة كلامهِ بقولهِ لهُ ان اللورد ارلنفورد يدعوهُ الى العشاء . فخرج على الاثر . وبعد خروجهِ سألت الخادم : — من هنا

فقال مسترسنساتوس الاميركي وتشارلس مدلتون واختهُ

— وماذا دعا الى تأخير العشاء الى الآن

— انتظار ضيف آخر — من هو

— القائد غودارد !

وهذه الجملة نطق بها خادم آخر دخل يعلن قدوم القائد المنتظر الذي تبعهُ على الاثر ودخل لكنهُ لم ينظر السيدة دشتون فالتفت اليهِ الخادم الذي كان يخاطبها وقال لهُ انهم لايزالون ينتظرون قدومكم لتناول العشاء فاجابهُ غودارد : —

— قل لهم اني انتظرهم هنا

— وانا اكون رفيقتك في الانتظار !

قالت السيدة دشتون هذا ونهضت مقبلةً اليهِ مادّة يدها واذ نظرها ناداها بزيد العجب والاستغراب

— اهلاً بداشي (ترخيم دشتون) كيف حالكِ ؟ يالكِ من ساحرة فتانة .

— صه ! لسنا الآن في الحند . اذكر انهُ مضى على اجتماعنا في هاتيك الاطراف اكثر من سبع سنوات افهمت مرادي ايها القائد غودارد؟

— نعم ايها السيدة دشتون . ولكن مالي اراكِ هنا ؟

— جئتُ زائرةً

— بدعوة مَن ؟

— ماذا يعنيك ؟

— انَّ لي بذا مأربًا يترقب —

— على مَن ؟

— عليكِ

— او ليس عليك انتَ

— وعليَّ ايضاً

هذا كلهُ تمَّ بسرعةٍ تضاهي البرق وعقبهُ سكوتٌ قضتهُ السيدة دشتون بالتفرُّس في وجه غودارد ثم قالت لهُ : —

— وماذا تروم معرفتهُ الآن ؟

— اظنك لا تحبين السيدة ارلنفورد بقدر ما تحبين زوجها اليس كذلك ؟

فنهضت على قدم الغيظ والحنق وقالت : —

— لم يعد يمكنني الصبر على هذه الاسئلة . فقل لي صريحاً ماذا يدعوك الى هذا التعريض

— اصغي اليَّ يا داشي . انهُ من الخشونة جرح احساسات امرأة . ويشقُّ عليَّ التعريض بك والتضييق عليكَ . ولكن السيدة ارلنفورد نسيبتي فلا ارى لكَ من حقٍّ في هذا التصرُّف وانتَ هنا في بيتها . واخاف ان تضطرين بسلوككِ هذا الى تنبيهها وحينئذٍ يرجَّح أنها

— تفعل حسب ما يأمرها زوجها — شأن النساء المطيعات — ولكن دعنا من هذا ولنسَ ما حدث متسامحين . واعلم اني لستُ بمطيلةِ اقامتي هنا وسأزايل لندن في اقل من شهرٍ . فلا حاجة لك الى القلق والخوف على السيدة ارلنفورد . وليس بخافٍ عليك انهُ يهمني ان اعيش برغدٍ وصفاء على رغم الموانع التي تحول دون تحقيق هذه الامنية . وماذا ان أبت نسيبتك مجيئي الى بيتها وكان زوجها يريد ذلك . على ان اقامتي في لندن قصيرة وبعد رجوعي اليها ساعدُ فيها منزلاً فاخراً يزورني فيهِ اصدقائي الاخصاء

— وهل يهتمون بك كثيراً ؟

— الى الغاية فان احدهم البرنس سكولوف مثلاً حريص جدًّا على اكرامي واحترامي ولذا تجد يختهُ واماكنهُ الخاصَّة في الملاعب والحراقص والمصايف والمتنزَّهات موقوفة على اشارتي . وتراهُ دائبًا في الاجتماع بي هنا في بيت اللورد ارلنفورد بعد ما يفرغ من اعمالهِ الرسمية . و —

ثم اعترض تتمة كلامها دخول السيدة ارلنفورد ومعها ابنة اسمها كتي مدلتون . فلما وقع نظرها على السيدة دشتون حيتها ببرودة وردَّت هذه تحيتها بمثلها . ثم التفتت الى غودارد وقالت : —

اني مسرورة جدًّا برؤيتك ! كأنَّك غائبٌ منذ وقتٍ طويل . واظنك تعرف كتي مدلتون والسيدة املي دشتون —

فاعترضتها املي وقالت : عرفتهُ من قبل والآن كنَّا نجدِّد عهد الود القديم

فالتفت غودارد الى كتي مدلتون وكانت قد وقفت شاخصةً اليهِ وقال : —

— تعالي يا كتي وقبلي صديقكِ .

فتقدمت اليهِ وقبَّلتهُ فقالت لها السيدة ارلنفورد : —

— يجب ان تلزمي جانب الرصانة يا كتي قدام الغرباء

فاجابتها و يداها لا تزالان حول عنق غودارد : —

— ان السيدة دشتون لا تروعها قبلة

فقالت هذه وقد كدَّرها هذا المشهد : —

— لا تزالين يا كتي على عهد طيشكِ القديم

فاجابتها كتي : — خلي عنك التوبيخ وحدثيني عن اخطار البرنس سكولوف وجرائمه لاني أسر بذكر كل ذي اسم روسي . فقصي عليّ كم اغتال من النفوس واجترح من المحارم

فقالت السيدة ارلنفورد من باب المزاح : — لو سمعك البرنس سكولوف لنفاك في الحال الى سيبيريا

فسأل غودارد : — من هذا الروسي ؟

— البرنس سكولوف المعتمد الروسي لا شك انك تعرفهُ

— اعرف عنهُ انهُ ساقط المبادئ من كل وجهٍ — عنيد لا يقهر ومستبدٌ لا يُقيَّد . وبالاجمال يقال انهُ سياسي ذاعت شهرة نجاحهِ في مساعيهِ لانهُ خالٍ من عواطف الحنو والشفقة . ولقد سمعتك تذكرين لهُ شريكةً تلقبينها بالظافرة فمن هي ؟

— الشيطانة الجميلة

— ومن هي الشيطانة الجميلة ؟

فقالت كتي : — حدثينا ايها السيدة دشتون عن الشيطانة الجميلة

ثم جذبتها الى غرفة البلياردو المفصولة عن غرفة الجلوس بستار كثيف . ولما خلت السيدة ارلنفورد بغودارد قالت لهُ : —

— كم رأيت الوقت طويلاً منذ ما ذهبت الى الهند

— وهل تذكرين يوم سفري ؟ لم يخطر ببالي اني ارجع وأراكِ ناسيةً صديقكِ الاول

— كيف عرفتَ ؟

— كيف عرفتُ اني صديقكِ الاول ؟ لانكِ كنتِ ابنة ثلاث سنين حين اجتمعنا اول مرة

— وكيف عرفت اني نسيتُ ؟ سمعت الجنرال سافيل يشير الى ترقيتك فهل هذا صحيح ؟

— لا يخلو الامر من الصحة لاني اتوقع ذلك والجنرال سافيل يميل اليَّ كثيراً ولهُ كلمة مسموعة في الدوائر العليا

— ولعلَّ معرفتك للغات الشرقية تعضد السعي في ترقيتك

— نعم ولكن الى درجة محدودة . واذا ساعدتني التقادير فلا بدَّ من نيل مبتغاي . وانا في هذه الليلة مدعوٌّ الى الخروج في رسالةٍ مهمة ومن وراثها انتظر ادراك ما ارجيهِ

— وعلى كلٍّ يشق عليَّ ان اراك ذاهباً الى افغانستان

— لانكِ لا تشعرين بشدة مالي من منصبي الحالي . لاني لست الآن سوى حامل بريد

— ولكنك معدود رسول جلالة الملكة وما هذا بقليل

— كلاها واحد . فان احمل رسائل وكذا يفعل حامل البريد . يسعى كثيراً ويؤجر قليلاً . وقد عرض لي مؤخراً حادث شغلت به كثيراً وعزمت على تأثره الى النهاية

— ماذا عسى ان يكون ؟

— عندما كنت في فينا في شهر اوغسطس الماضي ذهبت الى حفلة تنكر واذ لم ار في ما يسرني عزمت على الانصراف واذا بامرأة كنت ارافبها من قبل اسرعت الي الاستغاثة بي من رجل كان يطاردها وطلبت مني ان اسير في حمايتها الى مركبتها . وقد ابدت هذا كله بصوت لطيف لا يخف عن شيء يستدعي الارتياب والحذر من امرها . وبعد ما اوصلتها الى مركبتها صعدت اليها ودعتني الى تناول الطعام في منزل عينته لي على رقعة باسمها بشرط ان اكتم امرها ولا اسأل احداً عنها وحينما فارقتني ابدت شكرها لي ودعتني باسمي "القائد اوين شوداره"

— اذاً عرفتك باسمك ؟ فمن كانت ؟

— ثبت الى هذا الوقت لا اعلم عنها شيئاً . وعندما قرأت اسمها على الرقعة التي اعطتني اياها وهو "البارونة التدورف" كان السائق قد توارى بها عن النظر

— حقاً ان قصتك هذه عجيبة . وهل ذهبت الى تناول الطعام عندها ؟

— نعم وقد وجدت المكان المعين غاية في الترتيب والاتقان ولما استقبلتني فيه رأيتها في هيئة ساحرة ومن حديثها معي خيل لي اني اعرفها من عهد طويل

— صف لي ملامحها . هل كانت جميلة جداً ؟

— لا اعلم

— كيف لا تعلم ؟

— لا اعلم هل كانت وفق شروط الجمال . وعندي انهُ يتعذر وصفها على من يراها

— لله درك فقد وصفتها من حيث ادعيت بعدم استطاعتك لذلك

— ارأيت تشير بهذا الى شيء من غباوتي

— ليس في المحبة شيء من الغباوة في عيني

— المحبة ؟

— نعم المحبة

ثم استولى عليهما سكوت تام